(٩٦)

"السعادة عمل"

ذاقت طعم النجاح، وأحست بنشوة التميز، وعامًا بعد عامٍ أتمت كل العمل فلم يعد هناك أى إنجاز، وصاحب ذلك اختفاء مذاق السعادة الذى كان يمنحه لها كل نجاح تحققه، وبرغم تزاحم الناس حولها، تملك منها إحساسها بالوحدة وشعورها بالاكتئاب. وبعد مضى الأعوام والسنوات، اكتشفت أنها أفنت شبابها فى حُلمٍ واحدٍ لا غير، لم ينافسه ما سواه، ولم يشغلها عنه ما يشغل كل الفتيات فى مثل عمرها آنذاك. فلم تكترث بملاهى الحياة وتلاهيها التى تستنزف بريق الوجوه، ولا تستبقى من طهارة النفوس ما يساعدها على الاستمرار بثبات وسواء. وبعد انقضاء الأحلام وتمام تحقيقها، لم يعد هناك إلا انتظار المجهول البعيد، وتوقع المأمول السعيد.

وبعدما أمضت شهورًا طويلة بين انتظارٍ وتوقع، وبين استحضار ما غاب واستدعاء ما فات، اكتشفت أن سعادتها الماضية كانت ثمرة تجنيها هى لنفسها لتستأثر بها دون غيرها، ولم تفكر أبدًا فى أنها من الممكن أن تزرع ثمار سعادة كثيرة لغيرها يقومون هم بقطفها، فتتذوق بذلك مذاقًا جديدًا للسعادة غير ذلك المذاق الأنانى، الذى مكثت طويلاً تنهل منه دون ارتواء.

لم تكن تعلم أن لديها الكثير لتمنحه للآخرين، ولكنها أدركت أخيرًا أن السعادة الحقيقية لا تتم إلا بالبذل والعطاء، وتفنى سريعًا بالشح والإدخار

خوفًا من الإفناء وحرصًا على الإبقاء. لقد أيقنت أنها لم تستطع أن تحتفظ بما عاشته من أيامٍ سعيدة وأوقاتٍ جميلة، لتظل تنعم بها دون انقطاع، فلماذا إذن تمنع نفسها من الإنفاق وكل شيء إلى زوال؟!

لقد أنفقت سنوات عمرها الماضية دون حرصٍ أو إمساك فى أشياء أسعدتها لبرهة قصيرة، ثم أصبحت بعد ذلك مجرد ذكريات، فلماذا إذن لا تقوم الآن بكامل إرادتها ورغبتها بإنفاق ما تبقى من حياتها فى أشياء أخرى تسعد بها غيرها لبرهةٍ أطول من الزمان؟ ولماذا لا تزرع لهم الثمرة التى سيسعدوا بجنيها وحصادها فى وقتٍ ما؟

لماذا تدخر ابتسامتها لنفسها، ولا تبذلها لإدخال السرور على الآخرين؟

ولماذا تقف وحيدة على الشاطئ البعيد، وهناك الكثيرون حولها ينتظرون قدومها منذ زمنٍ بعيد؟

لماذا تستأثر قوتها لنفسها، وهناك غيرها من الضعفاء، الذين أسَّروا ضعفهم حرجًا من افتضاح أمرهم والاستهتار بهم؟

إنهم ما زالوا ينادون عليها بابتسامتهم الوديعة سائلين إياها فى صمتٍ أن تقبِل عليهم بغير خوف وارتياب، وبلا تمهلٍ أو ترددٍ.

لقد ظلت طويلاً تبحث عن السعادة الحقيقية التى ستمكث فى الأرض بعد رحيلها، والتى ستظل ترفرف بجناحيها حاملة روحها فى كل مكان تركت فيه ذكرى طيبة، وعملاً صالحًا لن ينساه كل محتاج، وسيفتقده كل ذى سؤال.